المبحث الثالث(*)

التناسق الإيقاعى

استثمر أبو الطيب الخصائص الصوتية فى حكاية المعنى والتعبير عنه استثمارا طيبا ، واستطاع أن يلائم بين معانيه وبين ألفاظه التى يستخدمها فى الإبانة عن هذا الموضوع ، واستعمل اللغة المناسبة للغرض الشعرى فللغزل ألفاظ غير ألفاظ الفخر والحرب وللهجاء الألفاظ التى تختلف عن ألفاظ العتاب والشكوى وهكذا وليس بخاف أن تنمية الحس السمعى ، وتذوقه للنبرة السائدة فى العمل الشعرى مما يحقق التوازن والتوافق والمواءمة الفنية بين عاطفة الشاعر وبين العمل الفنى الذى يقوم بأدائه ، ويلاحظ أن المتنبى قد وظف قوافيه توظيفا جيدا فى خدمة الصورة سواء أكانت تقفية خارجية أو داخلية ناشئة من اللحن المنبعث من المقطع داخل الكلمة ، أو من الكلمة داخل الصورة أو من الإيقاع الناشئ من ارتباط الكلمة بما قبلها وما بعدها والذى يتوقف اللسان عند نهايته وقفة قصيرة تكون بمثابة التقاط للنفس ثم ينطلق بعدها إلى نهاية البيت حيث القافية متمكنة فى مكانها ويرتبط الوزن بالموضوع ارتباطا قويا إذ إن جانب المشاعر الذى يكون نتيجة لارتفاع درجة التأثر النفسى هو الذى يتحكم غالبا فى النغم السائد فى العمل وهذا ما تحقق للرجل على قدر كبير حتى لقد صار التنغيم أداة فنية يتوسل بها فى أداء صوره أداء فنيا والتعبير عن تجربته التى سيطرت عليه بالنغم الذى تمليه عليه هذه التجربة فالنغم يرتبط بالشعور وبالموقف النفسى وهو يتفاعل مع الصورة تفاعلا عضويا فالموسيقى المؤتلفة والأنغام المجتمعة والألفاظ والتراكيب المؤلفة والصور الشعرية والمعانى التى تحتويها التراكيب هذا كله هو الذى يمثل حقيقة العمل الأدبى وأى خلل يصيب واحدا منها يصيب العمل كله خذ قول المتنبى(٢) :

أَتُرَاهـــا لِكَثْـــرَةِ العُشَّـــاقِ تَحْسِـبُ الـدَّمْعَ خِلْقَـةً فِـى المَـآقِى

(*) أوحى بفكرة هذا المبحث ما قرأته عن القيم التعبيرية فى كتاب النقد الأدبى أصوله ومناهجه للمرحوم الشهيد سيد قطب .

(١) الديوان ٢/٣٦٢ .

فإن كثرة حروف المد هنا أعانت على أداء المعنى أداء جيدا فى تصوير جمال المرأة الطاغى الذى لا يملك عشاقها أمامه سوى الدموع مما يشير إلى جمال فى حسنائه غير معروف ولا معهود .

وخذ قوله[1] :

طِـــوَالُ قَنـــاً تُطَاعِنُهَـــا قِصَـــارُ وَقَطْـرِكَ فِـى نَـدًى وَوَغًـى بِحَـارُ

فأنت تبصر النبرة المصورة لقوة الممدوح وشجاعته الفائقة ، وعطائه الفياض المتدفق بحيث ترى جرس الكلمات ورنة المقاطع معبرة مصورة ويساعد التصريع الذى ذاع فى شعر المتنبى وكثر فى مطالع قصائده كثرة هائلة على إيجاد لحن منسق جميل وإشاعة نغم تبتدئ به القصيدة يشد المستمع إليه ويجذب انتباهه نحوه ويثير فيه جوا من الاستحسان والانفعال لما يتلقاه .

واستمع لقول المتنبى فى رثائه لوالدة سيف الدولة[2] :

نعـــد المشـــرفية وَالعَـــوَالِى وَتَقْتُلُنَـــا المَنُـــونُ بِـــلا قِتَـــالِ

فإنك تجد اللحن الذى ينبع من خلال البيت يعبر عن الموقف ، وينادى عليه وتكاد تحس من خلاله ضعف المخلوق ، وقلة حيلته أمام بأس الموت وشدة قوته وأنه لا قيمة ولا جدوى لما يتترس الإنسان وراءه ويحتمى به مما يعده من المشرفية والعوالى لأن الموت حين يأتى لا تمنعه سيوف مرهفة ، ولا بروج مشيدة وإنما هو هكذا يقتل من غير قتال النغم المنبعث نغم مؤثر حزين والتصريع فى البيت يساعد على أسر الأذن وجذب سمعها ولحرف اللام المشبع بالكسر أثر فى التعبير عن تخاذل النفس وانكسارها وضعفها أمام رهبة الموت وسطوته .

وانظر إلى هذه الموسيقى الرحبة الندية الناعمة فى قوله[3] :

مَعَـانِى الشِّـعْبِ طِيبـاً فِـى المَغَـانِى بِمَنْزَلَـــةِ الرَّبِيْـــعِ مِـــنْ الزَّمَـــانِ

وكيف تلفت انتباهك ، وتشد سمعك وتنتقل بك إلى مغانى الشعب ومغانيه الآسرة إن الأصوات المنبعثة من مقاطع الكلمات تنسل فى رفق وهدوء إلى منافذ

---

(١) الديوان ٢/١٠٠ .
(٢) المرجع السابق ٣/٨ .
(٣) المرجع السابق ٤/٢٥١ .

الحس وتتسرب منها إلى داخل النفس شدوا ساحرا مرجعا ونغما رضيا خلوبا انظر إلى ما تثيره كلمة (مغانى) من دلالة صوتية وما تبعث به كلمة «طيبا» هكذا بكل هذا الشحن والتعبئة والعمق ، والتكثيف والتركيز لكل ما هو رضى وطيب وناعم وانظر إلى كلمة الربيع وما تحركه فى النفس من دواعى البهجة والفرحة ثم انظر إلى هذه المجانسة بين المغانى والزمان ومالها من أثر فى تشابه اللحن مع اختلاف المعنى مما يثير الحس الجمالى لدى القارئ أو المستمع .

قلت : إن اللحن النابع من مطاوى المقاطع ، والكلمات خاصة إذا التقى عند فاصلتين مصرعتين ومتجانستين فى الوزن يرتبط بالموضوع الذى يتناوله الشاعر وإن التصريع فى مقدمة القصائد يعتبر بمثابة اللفت القوى للقارئ والمستمع ، وجذب الانتباه ، والمعايشة للنص ، وقد استخدم المتنبى التصريع بكثرة فى مقدمة قصائده لهذه الدواعى مع ما يؤديه من قيمة فنية وجمالية تكون بمثابة البداية الطيبة للقصيدة الشعرية كلها وهكذا ترى هذه القيم الفنية والجمالية تتردد فى مطالع قصائده .

خذ قوله وهو فى طريقه إلى كافور[1] :

فِـرَاقٌ وَمَـنْ فَارَقْـتُ غَيْـرُ مُـذَمَّمَ وَأَمٌّ وَمَـنْ يَمَّمْـتُ خَيْـرُ مَـيَمَّم

وأرى ما يتردد من لحن هنا إنما يعبر عن توتر نفسية الشاعر وتردده ، وقلقه ، وحيرته . فهو يتجه بجسده إلى كافور ولكنك تشعر أن قلبه عند سيف الدولة ، وهو وإن كان لا يحرص على الماضى إلا أنك تراه وهو يكاد يخشى المستقبل فسيف الدولة المفارق غير مذموم ، وكافور المقصود خير ميمم ، والتجانس فى النغم فى عروض البيت وضربه يعمل على توازن اللحن ، وعلى تحقيق التناغم الصوتى فى البيت .

والشاعر يهتم بالإيقاع الداخلى بحسبانه عاملا قويا فى تجميل الصورة فى حسن أدائها الصوتى انظر إلى قوله[2] :

لَـهُ عَسْـكَرا خَيْـلٍ وَطَيْـرٍ إِذَا رَمَـى بِهَـا عَسْـكَراً لَـمْ يَبْـقَ إلاَّ جَمَاجِمُـهْ

سَـحَابٌ مِـنَ العِقْبَـانِ يَزْحَـفُ تَحْتَهَـا سَـحَابٌ إذا استسـقَتْ سَقَتْهَا صوارمه

---

(١) الديوان ١٣٤/٤ .

(٢) المرجع السابق ٣٣٦/٣ ، ٣٣٨ .

وما أظنك تستمع إلى الأصوات المنبعثة عن هذه الصورة التى تنوعت عناصرها واختلفت إلا وتحس بهول الرعب الذى يطل من خلال الأصوات المنبعثة عن هذين العسكرين اللذين يتحركان فى عظمة رهيبة ، وجلبة ، وصياح ، من صهيل الخيل ، وأصوات ونداء الفرسان ، وقعقعة السلاح ، وتلألؤ السيوف ، وارتطام أجساد القتلى بالأرض وواضح أن الموسيقى الداخلية تتضح من خلال تكرار الحروف والكلمات وما ينبعث عنهما من أصوات متشابهة فى أماكن متفرقة من الصورة وألق نظرة على عناصر الصورة وأدِرْ ذكرها على لسانك من الخيل ، والطير ، والسحاب ، والسيوف ، وانظر إلى هذا التفنن فى الأداء البيانى والذى انعكس على أثره الإحساس بالتناغم الصوتى حين جعل لسيف الدولة عسكرين ، وجعلهما سحابين ، سحابا من العقبان يطير فى الجو وسحابا من الجنود والخيل يزحف تحت سحاب العقبان وجعل السحاب الأعلى يستسقى السحاب الأدنى إن الطير تطير فوق جنود سيف الدولة فهى بمنزلة السحاب فى كثرتها ، وتزاحمها ، وتغطيتها ، وإذا كان سحاب الجو فيه برق ، ورعد ، ومطر ، وصواعق ، فإن سحاب سيف الدولة فيه بريق سيوف ووميض رماح ، وصوت أبطال ، وصبيب دماء ، بل إن السحاب الأدنى تسقى صوارمه السحاب الأعلى من مهج القتلى ، ومن بحار دمائهم ولا يخفى ما للتجنيس من دلالة صوتية فى تجانس النغم ، وتشابهه وتوافقه .

وخذ قوله[1] :

عزيزا أسًى مَنْ دَاؤُهُ الحَدَقُ النُّجلُ ... عَيَاءٌ بِهِ مَاتَ المحِبُّونَ مِنْ قَبْلُ

فَمَنْ شَاءَ فَلْيَنْظُرْ إلَيَّ فَمَنْظَرِى ... نَذِيرٌ إلى مَنْ ظَنَّ أنّ الهَوَى سَهْلُ

وَمَا هِيَ إلاَّ لَحْظَةٌ بَعْدَ لَحْظَةٍ ... إذَا نَزَلَت فِى قَلْبِه رَحَلُ العَقْلُ

جَرَى حُبُّهَا مَجرَى دمِى فِى مَفَاصِلِى ... فَأَصْبَحَ لِى عَنْ كُلّ شُغْلٍ بِهَا شُغْلُ

سَبَتْنِى بَدِلٌ ذَاتُ حُسْنٍ يَزِينُهَا ... تَكَحُّلُ عَيْنَيهَا وَلَيسَ بِهَا كُحْلُ

كَأَنّ لَحاظ العَيْنِ فِى فَتكِه بِنَا ... رَقِيبٌ تَعَدَّى أو عَدُو لَهَ دَخْلُ

---

(١) الديوان ١٨٠/٣ وما بعدها من العكبرى وص ٤٤ ديوان المتنبى دار بيروت للطباعة والنشر .

وَمِنْ جَسَدِى لَمْ يَتْرُكَ السِقَمِ شَعْرَةً فَمَا فَوْقَهَا إلاَّ وَفِيهَا لَهُ فِعْلُ
كَأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ سِدَّ مسامعى عَنِ العَذْلِ حَتَّى لَيْسَ يَدْخُلُهَا العَذْلِ

وأنت تلاحظ كيف تتصعد درجة الإيقاع فى الأبيات ، وتكاد تحس بذوب نفس الشاعر فيها وبحرقته ، وإرماض جوانحه ولوعته وأساه وإن شئت دليلا فأعر الأبيات مسامعك لينسكب فيها صوت الشاعر ، وليعانقها هذا الرنين المنبعث من أعماقه وحناياه وينساب إليها انسياب النمير الرقراق الصافى يتحدّر فى عذوبة ، ورقة ، وحنان ، ولست أشك فى أن أصوات الشعر سوف تحكى لك معاناة الشاعر ، وعذابه ، وتهالكه وما صنعته به الأعين النجل من عياء أمات المحبين ، وها هو الشعر يشد انتباهك إليه بعد أن تملك منك المسامع ليريك ما صنعت به الحدق النجل ، إن اللحن النابع من الكلمات يشع إشعاعا قويا وترى من خلاله مكابدة المحب ، ومعاناته وعذابه ، وتكرار بعض الحروف كحرف اللام وتشابه بعض الكلمات ، وتجانسها فى الوزن مع اختلافها فى المعنى مثل نجل ، قبل وتكرار بعض الكلمات لحظة بعد لحظة والتشابه والمجانسة بين (جرى ومجرى وتكحل وكحل وشغل وشغل) والدلالة الصوتية لبعض الكلمات مثل أسى ، عياء الهوى ، رحل ، سبتنى ، ودل ، تكحل ، لحاظ ، فتك ، دخل ، سقم ، عذل ومن التكرار المردد والتجنيس المرجع فى كلمات القوافى «قبل» سهل عقل ، شغل ، كحل ، دخل ، فعل ، عذل مما أشاع فى الأبيات تنغيما داخليا مع الإيقاع الخارجى المنبعث عن القافية والتى جعلتك تتألم وتتعذب لآلام الشاعر وعذابه بعد أن فتكت به الألحاظ ، وأردته الأحداق ، وغرست فى قلبه المدى والنصال وصار أسيرا لها ، مشغولا بحبها ، مقيدا بهواها لا يملك التفلت منها قد احتل السقم كل أجزاء جسمه حتى أنه لم يترك شعرة واحدة منه ، إن حرارة المشاعر والعواطف طغت فى الأبيات طغيانا واضحا وهذه الحرارة هى التى جعلت الأبيات ترتبط بموضوعها ارتباطا قويا وهى التى جعلت النغم يرق ويسلس وهكذا يرتبط النغم بالموضوع فيرق ويهدأ فى أبيات النسيب والحب ويشتد ويقسو فى مواقف الحرب وانظر إلى قوله[1] :

وَلاَ يَتَلَقَّى الحَرْبَ إلاَّ بِمُهْجَةٍ مُعَظَّمَةٍ مَذْخُورَةٍ للعَظَائِمِ

---

(١) العكبرى ٤/١١٣ ، ١١٤ .

وَذِى لجَــبٍ لاَ ذُو الجَنَــاحِ أَمَامَــهُ بنــاجٍ وَلاَ الــوَحْشُ المُثَــارُ بِسَــالِمِ
تَمُــرُّ عَلَيْــهِ الشَّــمْسُ وَهِــى ضَــعِيفَةٌ تُطَالِعُــهُ مِــنْ بِــيْنِ رِيــشِ القَشَــاعِمِ
إِذَا ضــوؤُها لاَقَــى مِــنَ الطَّيْــرِ فُرْجَــةً تَــدُورَ فَــوْقَ البِــيضِ مِثْــلَ الــدَّرَاهِمِ
وَيَخْفَــى عَلَيْــكَ البَــرقُ وَالرَّعْــدُ فَوْقَــهُ مِــنَ اللَّمْــعِ فِــى حَافَاتِــهِ والهَمَــاهِمِ

فها أنت ذا تكاد تسمع أصوات الجيش المندفع فى عنفوانها وصخبها وضجيجها يختلط فيها صهيل الخيول بأصوات الفرسان ، باصطكاك السيوف بجلبة الجيش ، وضوضاء الحركة ، مع رجرجة الأرض واضطرابها ومذلتها من كثرة الجيش وقوته ، واندفاعه فى تحركه حتى أن الشمس فى تلألئها وقوة إشراقها وضيائها قد منيت بالإعياء ، وأصابها الرهق ، إذ انعكست أشعتها عليها حين لم تجد المنافذ لتتسرب منها بعد أن غطت النسور الجارحه سماء المعركة ، وحلقت فى آفاقها انتظارا لوجبات شهية سوف تحصل عليها من جثث الضحايا ، وأشلاء القتلى ، ومن ثَمَّ فإنه يتعذر عليها أن تتسرب إلى الأرض إلا أن تصادف فرجة بين ريش النسور فإن صادفتها تخلل ضوؤها منها ورسم دائرة مستديرة تشبه الدراهم على المغافر والخوذات ثم يرتفع الصوت قويا بعد أن تشهد لمعان السلاح ، وهو يطغى على البرق ويخفيه ، وتسمع همهمة الفوارس تعلو هزيم الرعد فتغلبه وتغطيه .

وهكذا ترى الجرس يشتد ويقوى ، وترى النغم يعلو ويرتفع .

يصور جو المعركة وما فيها من مخاطر وأهوال .

قلت إن للتصريع أثرا فى إحداث التشابه فى الوزن وهذا الأثر يمتد ليصل إلى الجناس والتكرار خذ قول المتنبى[1] :

لِعَيْنَيْــكِ مَــا يَلْقَــى الفُــؤَادُ وَمَــا لَقِــى وَلِلحُــبِّ مَــا لَــمْ يَبْــقَ مِنِّــى وَمَــا بَقِــى
وَمَــا كُنْــتُ مِمَّــنْ يَــدْخُلُ العِشْــقُ قَلْبَــهُ وَلَكِــنْ مَــنْ يُبْصِــرُ جُفُونَــكِ يَعْشَــقِ
وَبَيْنَ الرِّضَــا والسُّخْطِ والقُرب والنَّوَى مَجَــالٌ لِــدَمْعِ المُقْلَــةِ المُتَرَقْــرِقَ
وَاَحْلَى الهَوَى مَا شَكَّ فِى الوَصْلِ رَبُّهُ وَفِى الهَجْرِ فَهْوَ الدَّهْرُ يَرْجُو ويَتَّقِى

وترى فى تكرار حرف القاف فى هذه الأبيات وترجيعه فيها تنغيما وتكراره فى كلمات مختلفة يعين على ترديد هذا اللحن المكرر كما أن التقفية الداخلية وخاصة

---

(١) الديوان ٢/٣٠٤ .

فى البيت الأول كلها تعمل على انبعاث لحن رقيق منسق جميل يلائم رقة الغزل والنسيب التى تترقرق معهما الدموع فى عينى الشاعر ، والإيقاع الذى يتولد نتيجة للمطابقة بين (الرضا والسخط والقرب والنوى والوصل والهجر) إيقاع مؤثر حزين يفعل الثنائيات المتضادة فى معانيها والتى تمثل حيرة الشاعر وقلقه وتوتره .

ولا يخفى ما للتقسيم من أثر جيد فى إحداث النغم الذى يكون له دوره فى تجميل الصورة وتحسينها وتلوينها وإشاعة البهجة فيها من خلال الإيقاع المنبعث عن التقفية الداخلية لجملة التقسيم خذ قول الشاعر[1] :

وَجَلاَ الوَدَاعُ مِنَ الحبيب مَحَاسِنًا حُسْنُ العَزَاء وَقَدْ جُلِينَ قَبِيحُ
فَيَدٌ مُسَلَّمَةٌ وطَرف شَاخِصٌ وَحَشَا يَذُوبُ وَمَدْمَعٌ مَسْفُوحُ

والنغم حلو ، والموسيقى مرقصة ، والإيقاع عذب وليس يخفى ما أحدثه التقسيم فى البيت الثانى من أثر فى إحداث الوزن وتقطيع اللحن وتوازن الفواصل ، وتهاديها هذا ويزدحم التقسيم فى شعر المتنبى ويكثر كثرة كبيرة مما يضمن لشعر الرجل إيقاعا موسيقيا عذبا وتوازنا فى الفواصل داخل البيت خذ هذا البيت الذى تكوّن كل كلمتين منه ربعا للبيت فى حساب دقيق وفى رنين متواز ونغم متساو[2]:

نَاءَيْتَهَ فَدَنَا، أَدْنَيْتُهُ فَنَأَى جَمَّشْتُهُ فَنَبَا، قَبَّلْتُهُ فَأَبَى

أرأيت إلى التقسيم المتوازن المتساوى داخل البيت؟ وكيف كونت كل كلمتين من كلماته الثمانية جزءا من أجزائه الأربعة تتساوى مع غيره من بقية الأجزاء فى حسن الاستواء ، وفى إشعاع اللحن ، وتساوى المقاطع ، أرأيت إلى الجرس المنبعث من كل مقطع وعند نهايته؟ مع حسن المطابقة ثم أرأيت أيضا كيف تتعانق الأجزاء وهى تتجاور ، وكيف تنسجم الكلمات وهى تتلاصق؟ ثم أرأيت إلى هذا اللحن المنبعث من أجزاء الصورة فى البيت وهو يحتضن مسامعك ويعانق منافذ الحس فيه فى رقة وتوافق وسحر وانسجام فتهتزله نفسك ، وتطرب من صوته أذنك ، وتتراقص معه مشاعرك؟ ثم أرأيت إلى هذا الدل والسحر والجذب والإغراء

---

(١) الديوان ١/٢٤٧ .

(٢) المرجع السابق ١/١١٠ .

والوعد يبعث بها الحبيب فى ذكاء ومهارة ويستخدمه فى فطنة وكياسة ، إذا رآه نأى يقترب ، وإذا رآه دنا يبتعد ، وإذا رآه يداعب ويعابث نبا وغضب وإذا حاول تقبيله أبى وفر وهرب ، مما تتوهج معه مشاعر الصب العاشق وتشتعل الرغبة فيه وتطغى وتعربد؟

ثم أرأيت رقة الألفاظ ونعومتها وعذوبتها وتحدرها ، وسحرها وسهولتها تبعث بموسيقاها الندية الرخية وبلحنها المستوى وبإيقاعها المتناسق ونغمها المنسق الجميل ، وكيف يطرب معها من لا يطرب ويرقص منها من لم يكن يرقص؟ خاصة من تصعد هذا الإيقاع وتلاحقه وتتابعه ، ترى هل أفرطت فى هذا التحليل الموسيقى للكلمات مفردة ومؤلفة أم أن لى مثلا فيما يراه ابن سنان الخفاجى من أن يكون لتأليف اللفظة حسنا فى السمع ومزية على غيرها ، ولأنه يرى أن الحروف التى هى أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر[1] ثم يترقى الحسن ، ويتنامى ويتضاعف ويكثر ويزداد حين تكون اللفظة الحسنة مؤلفة مع مثيلتها الحسنة فيكون للكلام المؤلف إيقاع حسن فى السمع وخفة وسحر فيه[2] ثم انظر إلى هذا الإيقاع يبعث به هذا التقسيم المتوازن المتساوى فى قول الشاعر[3] :

مـن كـل أحْـورَ فِـى أنْيابِـه شَـنَبٌ خَمْـرٌ يُخَامِرهـا مِسْـكٌ تُخَـامِرُهُ
نُعْـجٌ مَحَـاجِرُه دُعْـجٌ نَـوَاظِرُهُ حُمْـرٌ غَفَـائِرُهُ سُـوُدٌ غَـدَائِرُهُ

فإذا تجاوزت البيت الأول وما يترقرق فيه من نغم ولحن وما يبعث به ما يشبه رد العجز على الصدر فى قوله (خمر تخامره) وما تراه من تجاوز قوله : خمر وصفته تخامره مع تكرار حروف الخاء والميم والراء فى خمر يخامرها ، تخامره ثم هذا التجانس فى الوزن بين (خمر ومسك) وبين (تخامرها وتخامره) مع التقسيم والتقطيع فى (خمر يخامرها ومسك يخامره) وما يثيره هذا الترجيع والترديد من تنغيم تتمايل معه النفس وهى نشوى وتهتز له وهى مأخوذة مسحورة .

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ص ٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٧ .

(٣) الديوان ١١٦/٢ .

وانظر إلى البيت الثانى :

نُعْـــجٌ مَحَـــاجِرُه دُعْـــجٌ نَـــوَاظِرُهُ حُمْـــرٌ غَفَـــائِرُهُ سُـــودٌ غَـــدَائِرُهُ

وكيف ارتبط فيه الوزن بالإيقاع والجرس مع العاطفة والمعنى وأنت ترى أن كل لفظتين تشكلان ربعا للبيت هو بمثابة السجعة بداخله إن صح أن السجع يمكن أن يكون فى داخل الشعر ولا يخفى ما للمجانسة بين (نعج ودعج) (وحمر وسود) وبين (محاجره) و(نواظره) و(غفائره وغدائره) من أثر فى تجويد هذا التنغيم والإيقاع وجمال السبك وحسن التناسق مما أضفى على الصورة مذاقا خاصا جاءها من هذا المجال فما تحس به من حسن فى البيت إنما جاء من ناحية النغم ، لأنك لو فتشت فى البيت فلن تجد فيه سوى بياض محاجرها وسواد نواظرها وحمرة قناعها وسواد شعرها .

وخذ قوله[1] :

سَـــأَطْلُبُ حَقِّـــى بِالقَنَـــا ومَشَـــايِخٍ كَـــأَنَّهُمْ مِـــنْ طُـــولِ مَـــا التَثَمـــوا مُـــرْدُ

ثَقَـــالٍ إِذَا لاَقُـــوا خِفَـــافٍ إِذَا دُعُـــوا كَثِيـــرٍ إِذَا شُـــدُّوا قَلِيـــلٍ إِذَا عُـــدُّوا

وقوله[2] :

بَـــدَتْ قَمَـــراً وَمَالَـــتْ خـــوط بَـــانٍ وَفَاحَـــتْ عنْبَـــرا وَرَنَّـــتْ غَـــزَالا

فإنك ترى ما يترقرق فيها من نعم وما يتردد فيها من ترنيم إنما يعود لما أشاعه التقسيم وأحدثه .

خذ قوله[3] :

وَمَلَّنِـــى الفِـــرَاشُ وَكَـــانَ جَنْبِـــى يَمَـــلُّ لِقَـــاءَه فِـــى كُـــلِّ عَـــامِ

قَلِيْـــلٌ عَائِـــدِى سَـــقِمٌ فُـــؤَادِي كَثِيْـــرٌ حَاسِـــدِى صَـــعْبٌ مَرَامِـــى

عَلِيـــلَ الجِسْـــمِ مُمْتَنِـــعِ القِيَـــامِ شَـــدِيدُ السُّـــكْرِ مِـــنْ غَيْـــرِ المُـــدَامِ

فإنك ترى رنة الحزن التى تنبعث منه ونبرة الألم التى تتردد فيه ومرارة الشكوى التى تصعد منه وترجع كلها إلى التعبير المؤثر عن شدة الحرمان مع هذا اللحن

---

(١) الديوان ١/٣٧٣ عكبرى .

(٢) المرجع السابق ٣/٢٢٤ .

(٣) المرجع السابق ٤/١٤٥ ، ١٤٦ .

الشاجى الكئيب يشع من جوف الحروف والكلمات ألما دفينا وحزنا قاتلا ، وهما ثقيلا ومن جرس المقاطع شجوا مريرا ، وعذابا ممضا ، وأنينا موجعا .

وانظر إليه وهو يضرب على هذا الوتر[1] :

بِـمَ التَّعَلُّـلُ لاَ أَهَـلٌ وَلاَ وَطَـنٌ وَلاَ نَـدِيمٌ وَلاَ كَـأسٌ وَلاَ سَـكَنُ

وانظر إلى ما أحدثته لا النافية من تكرار الصوت وترديده .

وكيف ارتبط الوزن فى هذه الصورة الموسيقية بالإيقاع والجرس والعاطفة الملتاعة الحزينة والمعنى فى هذا التصوير ولسوف تستطيع أن تحس من خلال ذلك كله بضيق الشاعر وهمه ، واغترابه ، وحزنه ، وفقده للأخلاء وللأحباب مع رنة من الأسى وجيعة ونبرة من الألم النفسى ممضة هذا وقد يكون فى تكرار الحرف بعث لنغم يعين على أداء الصورة أداء فنيا انظر إلى قوله[2] :

وَأمْـواه يَصِـلُ بِهَـا حَصَـاهَا صَـلِيلَ الحَلْـيِ فِـى أَيـدِى الغَـوَانِى

وانظر إلى تكرار الصاد فى (يصل حصاها صليل) وارتباط الكلمات التى جاءت فيها بالنظم ارتباطا يعين على تصوير حال هؤلاء الذين يصل حصى الأمواه عندهم وما يشع هنا من نغم يحكى الترف والرغد الذى يعيش فيه أهل الوادى . وماذا يمكن أن يكون هناك من بلهنية ونعمة بعد هذه المياه التى تخر ، والحلى الذى يصل ، والغوانى اللائى يبعثن البهجة ويثرن الفتنة ، ولهذا فإن الكلمة قد تنهض بأداء دور ينبعث من خلال صوتها غير دلالتها اللغوية ككلمة (صليل) التى تمثل ارتطام الماء بالحصى وللمتنبى فى هذا باع طويل انظر إلى قوله[3] :

واحـر قلبـاه ممـن قلبـه شـبم وممـن بجسـمى وحـالى عنـده سـقم

فإن لقوله (واحر) دلالة صوتية تعبر عن حرقة قلب الشاعر واصطلائه وعويله وصراخه ، وفى لفظ (شبم) تعبير صوتى عن البرود والفتور فى قلب سيف الدولة ثم ما تثيره كلمة (مالى) من استغراب ودهشة وتعجب مـما تهمس بـه الكلمات وما يشع من أدواتها .

---

(١) الديوان ٤/٢٣٣ عكبرى .

(٢) الديوان ٤/٢٥٣ .

(٣) المرجع السابق ٣/٣٦٢ .

وانظر إلى الدلالة الصوتية لكلمة (غمام) وما يبعث به من غم وكرب وإلى الدلالة الصوتية لكلمة (صواعق) بما فيها من حرق وإبادة ، وتدمير والدلالة الصوتية لكلمة (ديم) وما تبعث به من رخاء وخضرة وبلهنية ورغد وحياه فى قول الشاعر[1] :

لَيْتَ الغَمَام الذِّى عِنْدِى صَوَاعِقُه يُزِيلُهُنّ إلىّ مَنْ عِنْدَه الدِّيم

وبمثل هذا يستثمر المتنبى الطاقة الصوتية للحروف وللكلمة والكلام ويوظف هذا كله فى إخراج صوره إخراجا فنيا ممتازا .

* * *

(١) الديوان ٣/٣٧١.